

## العمارة في العصر الأموي عمارة المساجد

### الجامع الأموي في دمشق:

يعتبر الجامع الأموي الذي شيده الوليد بن عبد الملك عام 87/هـ- 706م، من أروع صروح العمارة العربية الإسلامية التي شيدها الأمويون. إن تصميم الجامع- الذي اشترك في وضعه وتنفيذه مجموعة من المعماريين والعمال السوريين والمصريين وغيرهم- أتى نموذجاً فريداً لم يسبق لأحد من الشعوب أن بنت على غرارها، وبنفس الوقت أصبح النموذج المحتذى في بناء الجوامع الكبرى التي شيّدت فيما بعد.

بني الجامع في منطقة عرفت ببناء المعابد منذ العهد الآرامي في الألف الأول قبل الميلاد، حينما بنى الآراميون معبد الإله (حدد)، ثم بنى الرومان معبد الإله (جوبتير) الذي كان يضاهي معبد الإله (بل) في تدمر، ومن ثم كنيسة استخدمت بعض أبراجها كمآذن.

يتألف بناء الجامع من: صحن كبير مستطيل الشكل على جوانبه ثلاثة أبواب (باب البريد- باب النوفرة- باب العمارة أو الكلاسة) تصله بجهات المدينة الشرقية والغربية والشمالية.

يحيط بالصحن من الداخل رواق مسقوف قائم على أعمدة وعضادات، تحمل طبقتين من العقود الكبيرة والصغيرة مفتوحة على الصحن، وتقع القبليّة (المصلّى) على الطرف الجنوبي

من الصحن، وهي قاعة مستطيلة الشكل مؤلفة من ثلاثة أروقة موازية للقبلة ومحمولة على أعمدة رخامية وفوقها طبقتان من العقود تحمل السقف. وتمتد الأروقة من الشرق إلى الغرب ويبلغ ارتفاعها مع الأقواس حوالي 15/م، ويقطع الأروقة الثلاثة رواق معترض يمتد من الشمال إلى الجنوب يبلغ ارتفاعه 32/م، وغطيت القبلة بسقف خشبي مائل باتجاهين (جمالون)، وتبلغ أبعاد القبلة مع بقية أجزاء الجامع 157-97/م.

يحيط بالصحن أروقة أخرى تحدها أقواس، بعضها مدبب وبعضها على شكل حدوة الفرس، وفوق هذه العقود صف من النوافذ مستطيلة الشكل وجزئها العلوي نصف دائري، وتقع كل نافذتين منها على عقد من العقود، وتقع في الطرفين الشرقي والغربي للجامع أربع قاعات استخدمت للتدريس والاجتماعات.

### الحرم:

يضم الحرم (المصلى) المحراب الذي يحتل الجزء الرئيسي من إحدى فتحات الباب الذي كان يصل الجامع بقصر معاوية (الأخضر)، وقد سد هذا الباب بعد الحريق الذي أصاب القصر، وإلى جانب المحراب يقوم المنبر، وهناك محاريب أخرى صغيرة موزعة في الجدار الجنوبي، إلى جانب ضريح النبي يحيى عليه السلام.

### المآذن:

يتميز الجامع الأموي بمآذنه الشاهقة الارتفاع، التي بنيت في عهد الوليد بن عبد الملك، ولكن أقسامها العليا جددت في العصور اللاحقة. وأشهرها مئذنة العروس التي تتوسط الجدار الشمالي، والثانية في الشرقية وتسمى مئذنة عيسى، أما الثالثة فقد بنيت في الزاوية الغربية للمصلى. ويعتبر الجامع الأموي أول جامع استخدمت فيه المآذن، وتبعه بعد ذلك جامع عمرو ابن العاص في القسطنطينية بمصر.

### الزخارف:

إن زخارف الجامع تدل بلا ريب على مدى ضخامة الإنفاق في بناء الجامع، فجدران الجامع مكسية حتى 3/م بالرخام الملون، وباقي ارتفاع الجدران حتى السقف مكسوة بالموزاييك الملون باللون الذهبي، على شكل أشجار ومناظر طبيعية وكتابات، ورؤوس الأعمدة مطلية بالذهب وعقود الأروقة مغطاة بالموزاييك.

## طريقة الإنشاء والتسقيف:

لقد ربط المعماريون بين الأعمدة الرخامية بواسطة عقود أفواس متجاورة نصف دائرية، وأقيمت فوقها عقود مثلها تحمل السقف المائل باتجاهين (جمالون)، وبنفس الوقت تزيد من ارتفاع السقف مما يعطي القوة والضخامة للبناء. وتستند هذه العقود العليا على دعائم من الحجر، ويتألف كل عمود من تاج وبدن وقاعدة، وتيجان الأعمدة السفلية من الطراز الكورنثي، ولقد ساعدت هذه التيجان على إعطاء انطباع بأن المصلى عبارة عن غابة من النخيل. تساعد العقود المتتابعة على الشعور بالطبيعة الحية، حينما يتسلل الضوء من شبكات النوافذ، فيصل ضعيفا باهتا يكون له الأثر الكبير في النفس.

وقد جمعت عمارة الجامع الأموي بين أساليب معمارية متعددة، ولا سيما السورية في العصر الهلنستي، والعصر البيزنطي، كما ربط المعماريون تلك الأساليب بشكل عضوي يتناسب مع الوظيفة التي أنشئ لأجلها، ولا يفتقر من روعته المعمارية كونه متأثر بتلك الأساليب حيث أن المعمار العربي الإسلامي استطاع أن يخلق منها أسلوبا معماريا خاصا ذو شخصية متميزة، وعلى الرغم من التعديلات التي أدخلت على الجامع بسبب ما تعرض له من أحداث لم تفقده أصالته المعمارية الأولى.

تأثرت الكثير من الجوامع بأسلوب بناء الجامع الأموي منها:

- **جامع قرطبة في الأندلس** الذي بنى عام /786م، ثم حدث توسيع للجامع في ثلاث فترات، وتوضح لنا هذه الإضافات المرونة التامة في تصميم المساقط الأفقية للجوامع، التي جعلت من اليسير زيادة الفراغات المعمارية دون الخروج عن النموذج الأصلي للجامع. وأول ما يواجه الداخل إلى الجامع غابة من الأعمدة، تحمل مجموعة العقود العديدة المبنية على شكل حدوة الفرس، وتحمل هذه العقود سقف الجامع المبني من ألواح خشبية مصفوفة عرضيا، وتقوم قباب الجامع على هياكل عقود متشابكة في أشكال هندسية بدية.
- يعتبر جامع سيدي عقبة أو **جامع القيروان** أحد الجوامع المتأثرة ببناء الجامع الأموي، ويعود تاريخ بناء هذا الجامع إلى عام /50هـ-670م/ في عهد عقبة بن نافع، ثم تم تجديده في أيام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فيما بين عام /105هـ-724م/، ثم حدثت عليه إضافات أخرى في العصور اللاحقة.

يأخذ مسقط الجامع الشكل المستطيل غير المنتظم الأضلاع /126-77/م، وله صحن مكشوف /67-56/م، ويضم /414/ عمود ذات أشكال مختلفة مأخوذة من مباني متعددة، وتشكل الأعمدة /17/ رواق أوسعها الرواق الأوسط وهو متعامد مع القبليّة، ويتميز تخطيط الجامع بظاهرة جديدة ليست موجودة في الجوامع المعاصرة له، وذلك بوجود قبتان الأولى أعلى المحراب والثانية فوق بداية الرواق المتعامد مع القبليّة.

وتجاوز المعمار قصر الأعمدة المستعملة سابقا، بأن استخدم المكعبات الحجرية والعقود على شكل حدوة الفرس لزيادة ارتفاع سقف الجامع.

ويمتاز جامع سيدي عقبة بمئذنته المؤلفة من ثلاثة طوابق تعلوها قبة مفصصة، الطابق الأول مربع القاعدة تنحدر جدرانه إلى الداخل، فيقل العرض كلما ارتفعت. يعلوه الطابق الثاني، وهو مربع الشكل أصغر كثيرا من الأول ثم يتراجع الطابق الثالث. يعود الطابق الأول والثاني إلى عصر هشام بن عبد الملك. ويمكن القول بأن استخدام القباب في هذا الجامع كان له الأثر الكبير في ظهور الأقبية المتقاطعة، كما يعتبر هذا الجامع المصدر الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية عناصرها المعمارية والزخرفية.

## - الجامع الأموي الكبير بحلب:

يشبه الجامع الأموي بحلب من حيث التخطيط الجامع الأموي بدمشق، وتقول بعض المصادر التاريخية أن سليمان بن عبد الملك بناه ليضاهي به الجامع الذي شيده الوليد بن عبد الملك في دمشق.

إن الترميمات والتعديلات التي أدخلت على الجامع أفقدته الكثير من أصالته المعمارية، ولم يتبق منه سوى مخططه العام وهو شكل المسقط المستطيل بأبعاده /105-80/م، ويتضمن صحنًا واسعًا /79-47/م وتحيط بالصحن القبليّة وثلاثة أروقة، ويتم الدخول إلى صحن الجامع عبر أربعة أبواب.

## الحرم:

يتألف من ثلاثة أروقة تحملها ثمانون عمادة تتوزع على صفوف متماثلة، ويضم الحرم المنبر الذي جدد في العهد المملوكي في القرن الرابع عشر الميلادي. كما يضم الحرم عدة محاريب للصلاة ومدخلين رئيسيين.

## مئذنة الجامع:

على الرغم من أن المئذنة تعود إلى عصر لاحق، لكنها تبقى مرتبطة عضويًا بالجامع، تقع المئذنة في الجهة الشمالية الغربية من الجامع، بنيت على غرار المآذن البرجية المربعة الشكل، يبلغ ارتفاعها 42/م، يصعد إليها من باب صغير يؤدي إلى الموقف الأخير للمؤذن، طوقت المئذنة بأربعة أدوار يحمل كل منها زخارف تختلف في كل دور عن الآخر.

## القصور الأموية

لم يتبق الكثير من بقايا القصور الأموية في بلاد الشام لتتعرف بواسطتها على المميزات العامة لبناء القصور الأموية، وذلك بسبب جنوح العباسيين للقضاء على كل ما هو أموي- بعد زوال الخلافة الأموية وانتقال مركز الخلافة إلى مدينة بغداد- أدى ذلك إلى هدم الكثير من القصور التي شيدها بنو أمية في دمشق. رغم ذلك ذكرت بعض من المصادر التاريخية العديد من القصور والبيوت الأموية في مدينة دمشق، ولا سيما دار الإمارة أو قصر (الخضراء)، الذي شيده الخليفة الأموي الأول معاوية، والذي يذكره ابن عساکر المؤرخ الدمشقي في القرن الثاني عشر ميلادي إذ يقول: " أن معاوية بناها بالطوب فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم فظفر إليها، فقال معاوية: كيف ترى هذا البنيان، قال: أما أعلاه فللعصافير وأما أسفله فللنار. قال: فنقضها معاوية وبناها بالحجارة".

اشتهر الكثير من خلفاء بني أمية بحبهم للبناء وإظهار العظمة العربية، من خلال حركة عمرانية واسعة في مختلف أرجاء بلاد الشام. فبنوا قصورهم في بادية الشام أو على مقربة من نهر الفرات، بعيدا عن حياة المدينة: ليلتقوا مع زعماء القبائل، وينطلقوا في الصحراء متمتعين بلذة الصيد، وليلتقوا اللغة العربية الصحيحة من منابعها. وعليه كانت تصاميم تلك القصور متلائمة مع طبيعة الغاية التي أنشئت من أجلها.

لعل الفكرة التي انطلق منها الأمويون في بناء قصورهم ومنشآتهم المعمارية، تعتمد على إذابة ثقافات سكان بلاد الشام في بوتقة واحدة وإنشاء حضارة جديدة ذات طابع مستقل، يتفق مع طبيعة الدين الإسلامي، وتتلاءم مع روح العادات والتقاليد السورية. ويقوم تصميم القصور الأموية بشكل أساسي على تمركز فناء داخلي تتوزع حوله الفراغات المختلفة. وهذه الفكرة تعود بجذورها إلى العمارة في بلاد الشام والرافدين منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

من أشهر القصور التي بنيت في العصر الأموي: قصر الحير الغربي والشرقي بالقرب من تدمر (الحير كلمة آرامية "حيرتا" وتعني المعسكر)، وقصر أسيس قرب دمشق، وقصر

المشتى والطوبة والحراثة وقصر عمره في الأردن، و قصر خربة المفجر في فلسطين، وقصر عنجر في لبنان.

### قصر الحير الغربي:

يقع قصر الحير الغربي في الجنوب الغربي من مدينة تدمر، وبنى في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، بمسقط مربع الشكل تقريبا تتوزع أقسامه حول باحة داخلية وتستند على سور خارجي. تم بناؤه من الحجر حتى ارتفاع مترين عن سطح الأرض، ثم أكمل البناء بمداميك من اللبن، التي تتخللها صفوف من القرميد أو عوارض خشبية. تميز السور بسماكته وبأبراجه المستديرة في كل زوايا القصر (ما عدا الزاوية الشمالية الغربية)، وتتوسط جدرانه الخارجية أبراج أنصاف مستديرة (ما عدا واجهته الشرقية)، يحيط بالمدخل برجان نصف اسطوانيين. وكل هذه الأبراج ليست لغاية دفاعية كالأبراج الرومانية والبيزنطية، إذ هي ليست مفرغة وإنما الغاية منها زخرفة السور والرمز للمتانة والقوة، ومن المحتمل أن يكون بناء المدخل أكثر ارتفاعا من جدران السور وأبراجه، وذلك لإعطاء الإحساس بالضخامة والقوة، حيث أراد المعمار أن يكون التأثير مباشرة من الخارج.

تتوزع قاعات القصر وحجراته على شكل وحدات منفصلة، يتألف كل منها من ستة بيوت مستقلة عن بعضها، يوجد اثنان في الجهة الشرقية واثنان مقابلها في الجهة الغربية، وواحد في الجنوب يقابله واحد في الشمال. يتألف كل بيت من 8/ إلى 13/ قاعة وحجرة، تربط بينهما قاعة كبرى متشابهة في كل البيوت، وتمتد بين رواق الباحة وسور القصر الخارجي، ولها سقف محمول على قنطرة مدورة، تقسم سطحها إلى قسمين وتستند على دعامتين، ويتصل بكل قاعة من هذه القاعات أربع حجرات صغيرة متقابلة، اثنان من كل طرف بحيث أن بعضها يستند على سور القصر الخارجي وبعضها على جدران الباحة الداخلية.

تقع المراحيض في إحدى الحجرات الأخيرة من البيت. كانت تضاء الحجرات المستندة على السور بكوات صغيرة مستطيلة الشكل في أعلى السور، أما الحجرات المطلة على أروقة الباحة، فكانت تضاء عن طريق كوات ينفذ منها النور عن طريق الباحة السماوية، والقاعات الوسطى فعلى الأغلب كانت تضاء عن طريق الرواق بواسطة النوافذ الجصية المخرمة.

ودلت الاكتشافات الأثرية أن قصر الحير الغربي كان مؤلف من طابقين، والطابق العلوي يشبه الطابق السفلي من حيث التقسيمات الداخلية. كان يزود القصر بالماء عن طريق أنبوب فخاري يمتد عبر قناة من سد خربة إلى القصر.

يعبر بناء قصر الحير عن مدى قدرة الابتكار المعماري المحلي، المنبثق من فنون معمارية محلية متعددة، ويعتبر مرحلة نوعية في تاريخ العمارة المدنية من خلال المزيج، الذي يعتمد على طريقة البناء بالحجر والأجر.

يعتبر هذا القصر من أجمل المنشآت التي شيدها الأمويون على شكل مربع أو قريب من المربع، متأثرين بالعمارة الرافدية باستخدام الفراغ المركزي، والمدخل الواحد، والحماية بالأسوار المدعمة بالأبراج العديدة. يعتبر تخطيط القصر مثالا للمخططات التي انتشرت في بداية القرن الثامن الميلادي، يتميز هذا التخطيط بالتناظر في توزيع الفراغات المعمارية وفي التفاصيل المعمارية.

ويعود المعمار ليتأثر ثانية بأسلافه الرافديين فلا يجعل التناظر مطلقا، بسبب عوارض طبيعية بالنسبة للرافدي، واضطراري بالنسبة للمعمار الأموي للتوفيق بين بناء القصر وبين المنشآت البيزنطية، التي كانت قائمة سابقا والتي استغلت في بناء القصر.

لم يكن قصر الحير الغربي وحيدا في البداية المترامية الأطراف، وإنما شيّدوا منشآت أخرى تؤدي الخدمة للقصر وهي: الخان والحمام والبستان والسد.

## الخان:

وهو عبارة عن بناء مربع الشكل ذو فسحة سماوية، تتوزع حولها حجرات الخان على شكل أجنحة، يتألف كل جناح من قاعة واحدة طويلة لها مدخلان. يضم الجناح الشرقي ست حجرات صغيرة، تقع كل ثلاث منها في جهة، تتصل الأجنحة الأربعة بالفسحة السماوية بواسطة أروقة مرفوعة على دعائم خشبية ذات قواعد حجرية. يتقدم بناء الخان فسحة في شمالها رواق محمول على أعمدة، وفي جنوبها يوجد مسجد وفي شرقها حوض يأتيه الماء عبر قناة تعبر الوادي على قناطر، بنيت جدران الخان من الطوب على أساس من الأحجار المنحوتة بانتظام.

عثر على عتبة باب الخان على كتابة تشير أن الخان بني بأمر من الخليفة هشام عبد الملك، وقام بالإشراف على البناء ثابت بن أبي ثابت، ويعتبر هذا الخان أول خان بني في العصر الإسلامي ومثال لبقية الخانات التي بنيت في العصور اللاحقة، التي كانت بمثابة مكان لاستراحة القوافل التجارية وفراغ معماري جميل لعرض ولتبادل البضائع.

## الحمام:

يقع الحمام شمالي القصر، شكله غير منتظم قريب من شكل المستطيل، يتجه ضلعا الطويلان إلى الشمال والجنوب. يتألف من قسمين أساسيين: قسم بارد ويتألف من أربع حجرات، وقسم حار يتألف من ثلاث حجرات، وإلى جانب هذين القسمين توجد حجرتان فيها أجهزة التسخين والماء وحجرة لتنظيف مكان الوقود، وتختلف هذه الحجرات بمساحاتها ومساقطها بين مربعة ومستطيلة.

يوضح هذا الحمام بجلاء اختلاف الحمامات الأموية عن الحمامات الرومانية، بعدم وجود القسم الفاتر وخلوه من أحواض السباحة والملاعب.

## البستان:

كان البستان على شكل شبه منحرف طوله /1050/م وعرضه /442/م، وله مدخلان: الرئيسي في الزاوية الشرقية وهو مدخل مستطيل الشكل يوجد داخل جداره وفي طرفيه برجان صغيران لدعم الباب والسور، ويتألف من دهليزين متتابعين فيهما مصاطب جانبية، ويقع المدخل الثاني في الجهة الشمالية الشرقية. يزود البستان بالماء عن طريق قناة ممتدة من البحيرة الاصطناعية خلف سد خريقة، وتتوزع الأقنية في أرجاء البستان، حيث أن سطح البستان مقسم إلى عدد من المربعات تسقى واحدا بعد الآخر، ويحيط بالبستان سور مبني من الطوب على أساس من الحجر الرملي المنحوت.

## سد خريقة:

لقد استفاد الأمويون من هذا السد الذي بني في العصر الروماني لسقاية الأراضي، وتزويد القصر والحمام والبستان بالمياه، ويوجد خلف السد بحير اصطناعية يبلغ طولها /1550/م وعرضها /800/م.

## قصر الحير الشرقي:

وهو القصر الثاني الذي شيده الأمويون في أطراف تدمر، ويقع في الشمال الشرقي منها، ويبعد عنها مسافة /105/كم. شيده الخليفة هشام بن عبد الملك حوالي عام /110هـ- 729م/، يتألف القصر من قسمين: قسم شرقي صغير يسمى القصر الصغير، وقسم غربي كبير وبينهما مسافة /42/م. وفي الجنوب الشرقي من القصرين بني مسجد ملحق بهما. مسقط القصر الصغير مربع الشكل طول ضلعه /70/، وكذلك القصر الكبير مربع الشكل طول ضلعه /170/م،



وبشكل عام يشبه بتصميمه قصر الحير الغربي، فله مدخل في جهته الجنوبية مدعم في كل من طرفيه ببرج نصف دائري، وللقصر بستان ملحق به، كما يحيط به سور على شكل شبه منحرف، مبني من القرميد فوق أساس متين من أربعة مداميك حجرية ارتفاع كل منها 30/سم، يليها جدار القرميد الذي تعلوه مداميك من الحجر المنحوت لحماية القرميد، ويوجد في جدران السور فتحات لتصريف مياه الأمطار. والجدران في كلا القصرين مدعمة بأبراج نصف دائرية، ويوجد في كل زاوية برج دائري الشكل، وتشبه مداخله مداخل قصر الحير الغربي.

يوجد في الشمال الغربي من القصر حي سكني، كان يستعمل غالبا لسكن حاشية الملك وحراسه وخدمه. ويمكن اعتبار موقع قصر الحير الشرقي مدينة صغيرة، وليس قصرا فحسب، تضم كافة عناصر المدينة المصغرة. ربما تكشف الدراسات والتنقيبات المستمرة عن المزيد من العناصر والتكوينات المعمارية في هذه المدينة، ونستطيع القول أن هذا القصر إبداع أموي تطور واستخدم في العصر العباسي.

يوجد العديد من المباني والقصور المنتشرة في بادية الشام، ومنها قصر أسيس الذي يقع في الجنوب الشرقي من دمشق وعلى بعد 105/كم، ويعتبر من أقدم قصور البادية في العصر الأموي. ويضم أيضا حمام متكامل يعتبر أول نموذج للحمام الإسلامي.

تذكر المصادر التاريخية أن المعمارين الذين قاموا بالإشراف على بناء المنشآت المعمارية في عهد هشام عبد الملك هم: حسان الأنطاكي، وسليمان بن عبيد وثابت بن أبي ثابت. ولا ريب أن أصحابها من بلاد الشام، مما يدحض مزاعم البعض بأن العمارة الإسلامية في ذلك العصر كانت من تصميم المهندسين البيزنطيين والساسانيين، وعناصرها مزيج مختلط من الفنون المعمارية الأخرى، ويؤكد وجود هؤلاء المهندسين أصالة العمارة العربية التي لا يعيبها أنها استوحت من كل فنون البناء المنتشرة وقتها، دون أن يطغى هذا التأثير على شخصيتها المستقلة.

د. عبير شددود